النظرة الميتة

للكاتب الفنلندى ..

مايكا قالترى

ترجمة : سعد مكاوى

— ١ —

فى صالة البيت التى ينيرها ضوء حزين مجرد من الحياة ينفثه مصباح عار مدلى من السقف ، كانت على المائدة بقايا الطعام ، وعاء الحساء وسلة بها شرائح ثقيلة من الخبز وثلاثة أطباق ، عندما ظهر على العتبة ذلك الرجل المجهول عند غروب الشمس فى ذلك اليوم من الربيع .

كان واضحا أنه جاء من بعيد ومشى طويلا حتى تقلصت ساقاه وهده الاعياء ، ثم اجتاز القرية كلها قبل أن يصل الى البيت المنفرد فى قلب المزرعة ، وألقى تحية المساء بصوت خافت وهو يكشف رأسه ويجفف جبينه ، وظل واقفا فى فتحة الباب وقبعته فى يده .

وكان فى الصالة الواسعة ثلاثة أشخاص ، رجل لم يتخط الشباب لكن له وجها مسترخيا وتحت عينيه اللتين تروغ نظرتهما جيوب زرقاء ، وكان يقرأ صحيفة فتحاها قليلا وألقى نظرة خاطفة على الغريب ، ثم عادت نظرته الهاربة فثبتت على صحيفته ، وعجوز كان مشغولا باصلاح العقد الممزقة فى مصيدة السمك ، فقطع عمله وفحص الغريب دون أن يرد تحيته ، ودون أن يبين فى وجهه النحيل الهرم فضول ، وامرأة واقفة بين الموقد وسطل الماء الكبير ، وشعرها ممشط باهمال ومشدود الى الوراء بحيث يبدو وجهها عاريا غريبا كأنه قناع ، فرفعت عينيها بلونهما الأزرق البارد وتأملت الغريب فى هدوء وشمول ، وردت وحدها تحيته .

أنزل الغريب المجهول ربطته من فوق ظهره وجلس قرب الباب الى جانب الموقد ووضع ربطته وقبعته بين ساقيه ، ولم يقل كلمة .

وأخيرا سأله الفلاح العجوز :

— هل جئت من بعيد ؟

وتعلقت به أنظار الثلاثة ، فقال :

— جئت أطلب عمل خادم فى المزرعة .

قذف الرجل العصبى بصحيفته فوق المائدة وتقلصت ملامحه وقال فى احتدام فظيع :

— لا حاجة بنا الى خادم !

نظر الغريب بازدراء مندهش الى الرجل الذى فقد كل سيطرة على نفسه ، ثم انزلقت نظرته نحو المرأة ، التى كانت رغم مرونتها القدرة شخصا خارقا للمألوف وأصلب من أن تكون امرأة ، وقال موجها كلامه اليها هى :

— رأيت اعلانا فى الصحيفة .

فأيدته باشارة من رأسها ولم تتغير النظرة الزرقاء الصلبة فى عينيها ، لكنها نظرت الى رجلها العصبى مجرد نظرة ، فاذا بوجهه يتقلص ويكتفيه تفوران ويقمه يسترخى من جديد ، الا الغضب المحتدم ظل مبرقا فى عينيه ، ثم لم يلبث هو أيضا أن انطفأ وخبا .

وسألت المرأة بصوتها الهادىء الحاسم :

ـ اذن فأنت قادم من بعيد ؟ .

تردد الغريب لحظة قبل أن يقول انه قادم من الشرق ، وأمام الحاح عينيهـــا الهادئتين الباردتين أضاف اسم منطقة صناعية كبيرة ...

ـ هل تعشيت ؟

أجاب وهو يكذب دون أن ينظر نحوها بأنه ليس جائعـــا ، فنهض الرجل العصبى بعد أن أشعل سيجارة وتقدم نحو الرجل المجهول الذى دخل بيته وفحصه من رأسه الى قـــدمه وهو ينفث الدخان ، ثم سأله فى جفاء :

ـ وما الذى جاء بك الى هنا ؟

لم ينظر الغريب نحو الرجل وظل محدقا أمامه دون أن يجيب ، فاحتدم ذو الوجه الرخو المنفعل :

ـ على من يطلب عملا أن يرد عنـدما يوجه اليه سؤال ... والشهادات ... والشهادات ، معك شهادات ؟ نحن لا نأخذ فى هذه المزرعة أى متشرد يدق بابنا ! .

ونظرته المتعاليـــة هى التى جعلت الغريب يحس فجأة كم هـو رث الثياب مخروق الحذاء وقـــذر ، فانكسرت نظرته وهو يقول بصوت خفيض :

ـ عندى شهادتان .

وبحث فى صدوره دون أن يرفع رأسه حتى أخرج محفظـــة من الجلد وتناول منها ورقتين مطبقتين واطرافهما متـآكلة ، فأخذهما صاحب المزرعة وفحصهما تحت المصـــباح ، ثم قال فى مماحكة .

ـ بســـتانى ، ثم رئيس عمال فى مصنع ، والشهادتان قديمتان جدا ، أحدثهما تاريخها من ثمانى ســـنوات ! ... اين كنت فى هـــذه السنوات الاخيرة ؟

كان يتعثر فى الكلام من الانفعال ، واختفت الآن كل رخاوته وتحددت ملامحه وصار جبينه ذكيا ، فهو الآن صاحب الارض الواثق من نفسه والشاعر بقيمته ، وزمجر فجأة :

ـ أولئك المتشردون !

فما أن قال ذلك حتى كان الفلاح الشيخ قد نهض واقفا فى تحفز ، ودنت المرأة أيضا من رجلها الهـائج الذى بزغت عروق صدغيه وسال من ركنى فمه اللعاب ، وهو يدق الأرض بقدمه ويشوح بذراعيه قائلا فى صراخ عنيف :

ـ ان بيتى ليس ملجأ للمتشردين ! ... هل يتصور أحـــد انى لا أعرف كيف أقف على قدمى دون مساعد ؟! ..

ـ رويدك يا ألفريد !

قالتهـا المرأة بصوت خفيض لـكنه حاسم وواضح ، فقطعت بها كلام زوجها الذى تعثرت الكلمات فى حلقه وارتبك وزاغ بصره فى اتجاه كتلة الخشب المتلظية فى الموقـد ، ثم ركل الخشبة المشتعلة ، وأخذت ترتعد وجنتاه المكتنزتان وذقنه الضئيل ، ونظر الى امرأته فقرأ الغريب فى هذه النظرة بغضاء جملته يشبح ببصره لفرط عمقها ومرارتها ..

واندفع سيد المزرعة خارجا وصفق البـــاب وراءه بضربة عنيفة ، فنزعت المرأة مرولتهـــا وجلست الى المـــائدة وعقـدت فوقها ذراعيها وقالت :

ـ نحن فى حاجـة الى مساعد خبير بشئون الزراعة المختلفة وقادر أيضـــا على أن يتولى وحده المزرعة ... وليس هنا غيرنا نحن الثلاثة ، فالعجوز يفعل ما يستطيع ، وهو ... زوجى ... يحاول أن يحمل نصيبه من العمل ، لكن على نحو غير منتظم ... عنـــدما يستطيع ... كان مريضـــا ... ولا هو ولا أنا كنـا فى الأصل مزارعين ، ولا نكاد الآن نقوى على الاحتفاظ بخادم حتى الخريف ، فاذا كنت فوق هذا حريصا على الأجر ، فانى أخشى ...

قال وقد أدرك الموقف بوضوح :

ـ يرضينى أن أنتظر حتى الخريف بأقـل ما تسمحين به ، ثم بعد ذلك نرى .

ألقى العجوز تحية المساء ثم جر قدميه الى الخارج ، وسدد الغريب نظرته فى عينى المرأة اللامعتين بالصلابة والحيطة ، فقالت له :

ـ لا أريد أن أرى شهاداتك ... ماذا تعنى الشهادات ! ... بالعمل وحده تعرف قيمـــة المرء ... كما أنى لا يعنينى المكان الذى اشتغلت فيه فى العهد الأخير وسبب رحيلك عنه ... ان

هذا لا يعنى احدا سواك ... يكفينى انك قرأت اعلانى وجئت ..

وفى ركن المكان كان سرير قالت له انه سيكون مرقده حتى يشيع الدفء فى الليالى وعند ذاك ينتقل الى المخزن ، وانها ليست طباخة بارعة ، وان الطعام يشح فى المزرعة فى الربيع ، فليبق ان أرضاه كل هذا !

وفى سكون نهض المجهول وعلق قبعتـــه فى المسمار وحمل ربطتـــه الى جانب السرير ، فنهضت ربة البيت ووزنته بنظرتها وهى مترددة ، ثم انسحبت الى حجرتها .

وكان جالسا فوق طرف الفراش عندما عادت المرأة بعد قليل ، بعـــد أن كان قد نزع حذاءه الرطب الموحل ، فحملته المرأة قرب النار ، ثم وضعت فوق السرير بجانب الرجـــل ملابس نظيفة وهى تقول له :

ـ جرب هـــذه الملابس لعلها توافقك ، وتستطيع فى الصباح أن تأخذ حذاء من مدخل البيت ، فان هذا لم يعد يصلح للاستعمال ... وهنا فى الركن قرب الموقد ستضع ملابسك التى تحتاج الى الغسل .

والتقت نظرته الجادة بنظرتها البـــاردة ، فقال :

ـ اسمى التونن .

قالت قبل أن تتركه للنوم :

ـ مرحبا بك فى المزرعة يا التونن .

ـ ٢ ـ

الغريب الآن يتصرف فى المزرعة تصرف انسان يبحث فى زحمة العمل عن محو كامل لماضيه ، فهو يحصر نفسه فى حدود مهمته بلا فضول ، وهو رغم قربه بعيد ، وفى الوسع الاعتماد عليه دون أن يطالب هو بالثمن .

وقد تبين « التونن » من فوره سوء الحال فى المزرعـة التى كانت تنزلق بسرعة نحـــو الخراب ، وعلم من الفـــلاح العجوز أو والد « الفريد » كان سكيرا مدمنا ، وقد حاول أن يسرق خاتم الخطبـة من اصبع امرأته المسجاة فى تابوتها ! ... وبعدها اختفى ولم يسمع عنه عنه أحد ... لكنه ترك لابنه دمه كما ترك له ميراثه .. ان « الفريد » يتسول خمرة فى بعض الأحيـان باستعطاف وذلة ، ويهيم طوال أيامه فى بحار الذهول ، وقد يبـدو له أن يشارك فى شرف العمل ، فيبدأ فى حماسة ثم فجأة يتخلى عن كل شىء وينصرف الى هواجســـه وأوهامه ورغبته المخبولة فى زوجته المسكينة التى ما كان أصعب حياتها وأقساها ، والتى تعمدت من يوم الى يوم ومن سنة الى سنة أن تهمل أنوثتها لكى تنفر منها زوجها المخبول الذى تحكمه وتروضه ، والتى تبارك فى الحقيقة كل لحظة تستطيع فيها أن تكون وحيدة وبعيدة عن ذلك الرخو المريض الذى يطاردها بصـــباباته وتوسلاته ووعوده الكاذبة ، زوجها ، لعنة حياتها ..

وكانت حجرة السيد المريض من داخل حجرة امرأته ، ففى ذات ليلة صحا « التونن » من نومه على محادثة بين الزوج والزوجة من خلال الباب الفاصل بين الحجرتين ، وكان الرجل بيديه يدق الباب وهو يسب ويتوسل ، والمرأة تكلمه من خلال الباب الموصد عليـه ، ثم ارتفع صوت الفلاح العجوز هو الآخر وقبضـته تضرب الحائط من الدهليز ، وهـــو يزعق فى ســـاكن الحجرة الداخلية :

ـ أتسكت أم أجيئك فأضربك ؟

وعند هـــذا التهديد هدأت ثائرة الرجل المحبوس ...

كانت المرأة تتعذب وهى تتصلب وتتشدد ، ولما كان خادمها الجديد القادم من بعيد هو أيضا قد عرف العذاب فى ماضيه الذى هرب منه ، فقد جاشت نفسه بالعطف عليها ، وصار العمل المضنى من أجلها لذة ...

وجاء يوم كسر الرجل المحبوس فيه الباب وسرب نقود زوجته وهرب ... اختفى أسبوعا كاملا ظلت المرأة خلاله عاملة لا تعرف الراحة ، وهى تحارب ضد ما بقى فى أنوثتها من عذوبة ومن ضعف ... وفى عينى « التونن » صارت جميلة فى كبريائها وارادتها وعذابها !

ثم جاء من القرية خبر يقول ان « الفريد » هنـــاك فى حالة سكر فظيعة ، فذهب اليـه « التونن » والفـــلاح العجوز وضربا رفاقه السكارى ، وأخذ « الفريد » نفسه يبكى من

الخوف وهو يرتعد واللعاب الغزير يسيل من فمه ، ولم يكف عن صراخه العصبى الا عندما ضربه عجوز المزرعة وراء أذنه بهراوته فأسقطه وهو يتلوى والزبد فى فمـــه ، وعادا به الى المزرعة فى موكب صامت ، فمشى بينهما وهو يتعثر ويبكى متهافتا كلما دفعه العجوز الصارم ..

وفى البيت استقبلت المرأة رجلهـــا العائد بنظرتها البـــاردة الزرقاء ، نظرة ميتـــة ، بلا رجاء ...

وعرف « التونن » فى هذا الموقف أن صاحب المزرعة السكير كان قد قضى سنة فى المستشفى ، وأنه وزوجته كان لهما فى المدينة بيت جميل وحياة مترفة ، الى أن قال لها الأطباء ان حياة الريف أنسب لزوجها المعتل الأعصاب ، فاشترت بما بقى من مالها هذه المزرعة ، منذ ثلاث سنوات ، هى التى لم تكن رأت فى حياتهـــا بقرة تحلب ... ووحدها ، بلا معين ، كافحت ، وفى كل يوم كان حال زوجها يزداد سوءا ، وتزداد هى اصرارا على البقاء فى المزرعة التى صارت كل حياتها ...

وبعد حادث الهرب ــ ولم يكن هربه الأول ولا العاشر ــ تفاقمت حالته وصار كل همه من الحياة أن يغازل امرأته بتوسلاته المرتعدة الذليلة ، فهو يدنو منها زاحفا على ركبتيه وهو يستجدى ، ويظل أمامها ينهار وينهار حتى تضعف له ، ثم تخرج من عنده شـبه مجنونة هى الأخرى ... هناك وراء الباب الموصد بالمفتاح يتحرك حيوانها الفظيع وينادیها ... يقرض الباب بأظافره ، ويتسـول جسمها ... ذلك الصوت كان يوما ما عزيزا عليها ، وهو الآن يقتل ببطء كل ما هو انسانى وطيب فيهـــا .. صوت يكلمها هى وحدها ... وفى الليل تنهض وتأخذ المفتاح وتفتح الباب وتدخل .. وفى الظلمة تقبض على ذراعيها فى الحال يدان طريتان شرهتان ، أليسا زوجين أمام الله وأمام الناس ! .

فى الماضى كانت تفعل ذلك محاولة أن تخدع نفسها ، فهى تنتزع من ذلك الفم اللاهث وعودا وتأكيدا بحياة جديدة ، لكن كل وعد كان يخفى الكذوبة ، وكل عهد كان مجرد وسيلة لشيمة ... وعندما تحققت آخر الأمر أن ارادة زوجها مثل جسمه بلا عضلات ، رخوة مرتعدة خدعت نفسها ايضا وشاءت أن تعتقد أن وعوده وعهوده كانت على الأقل حقيقية وصادقة فى ساعة النطق بها ، كانت كلمات حب ، حب يناشـــدها أن تأمل وتغفر ... تصورت أن حنانها يمنحه شيئا من القوة ، من القـــدرة على العمل وعلى ترويض الذات ، لكن هذا أيضا لم يكن غير أكذوبة ولم يكن هدف كل ضراعة من ضراعاته الا اضعاف ارادتها وتحطيم مقاومتها واخضاع كيانها للوثات الســعار المخمور ... وهى الآن ان دخلت على حيوانها دخلت شهيدة ، صماء وباردة ، بلا حركة ، بلا دمعـــة ، وبثمن جســمها المصلوب كانت تشترى للمزرعة أياما من سلام ظاهرى خادع ، ثم تعود الى حجرتها لتقسم لنفسها أن تكون هذه هى آخر مرة ... كان ذلك هو كل الماضى ، أما الآن فهى تعرف أنه لن ينالها أبدا منذ اليوم ولن يشرب من كأســـها غير مرارات الحقد والضغينة !

لم يعد فى نظرها مريضا تعسا وصبيا وغير مسئول عن أفعاله ، هذا هو منطق حضارة المدن وايحازها الذى تطبعه فى الروح ، حيث يقول الأطباء الكذابون ان القسوة والوضاعة والشر والزيف والكذب وعدم المسئولية هى أمراض أيضا ، ويبررون مثل حالة زوجهـــا بكلمات جوفاء .. يقولون كيان قابل بطبيعته للأمراض النفسانية .. ادمان ورائى ... كلمات خطيرة كانت فى الماضى تتسلل الى نفســـها الرحيمة فى جلال علمى ، أما الآن فهى امرأة جديدة ضاع منها حتى ايمانها بهذا الكلام الجميل !

انه وحش يلتهم الحيـــاة ويجردها من كل جمال !

والطبيعة كالقسوة فى معاملة مثل هذا الحيوان المخبول الذى عصف بحياتها وأفقدها حياة المدن دون أن يعوضها فى الريف شـــيئا يمتلىء به وجودها .. لقد ضاع هذا الرجل وانتهى !

وعليها ، وحدها ، أن تصنع المستقبل ...

ــ ٣ ــ

لأول مرة تكلما عن شىء غير العمـــل والأرض والحصاد ، وكانا قد بدرا البطاطس فى الأرض ثم تناولا الغداء عند حافة الغابة واستلقيا فى ظلها جنبا الى جنب يختلسان راحة ، فقالت صاحبة

المزرعة لأجيرها ان أباها كان خبازا غنيا فى المدينة ، وانها كانت وهى تلميذة فى المدينة تقرا الكتب وتؤمن بها ، وكانت تنتقل فى سيارة أبيها ، وتقيم حفلات استقبال ... وقال لها ان اسمه ليس « ألتون » وانه ليس أعزب كما كذب عليها !

واحسا وهما يتكلمان انهما صارا قبضة واحدة فى وجه الدنيا ، هذه التى تصارع الأرض وهذا العامل الذى يأكل بسكينه ولا يستعمل المنديل ، والذى تغسل هى كل يوم اثنين قميصه القذر على حافة الجدول ..

واعترف واعترفت ، فهناك فى الشرق البعيد له امرأة وطفل فى عامه السابع ، وهنا قصة موجعة عن ماضى هذه المسكينة ، وكيف ظهر « الفريد » فى حياتها وتزوجها وأثثا بمال أبيها بيتا جميلا ... لقد اخفت عنها أسرته أنه قضى فترة من شبابه فى مستشفى الأمراض العصبية ، أخفوا عنها ذلك كما لو كان عارا ... ولم تكن هى غير بنت حمقاء مزهوة ، فتاهت بالعريس عجبا وكانت تضحك من أفاعيله وهو سكران ، بل شربت معه هى أيضا ..

كشفت له كل الماضى وكل الجراح الدفينة وأزاحت له التراب عن الجمرات المتلظية فى أعماق حياتها ، فعاد هو أيضا يكلمها عن بيته القديم القريب من المصنع الذى اشتغل فيه ثمانى سنوات ، وعن حديقة كانت للبيت وكان يرويها فى المساء بنفسه ... وكيف جاء يوم من الخريف الماضى أخذ فيه قبعته ورحل دون وداع ، تاركا المرأة وابنها والماضى كله الى غير رجعة ..

قبضة واحدة ، قلب واحد ، لقد جاء بالبعث معه ، بعث الأرض بعد موتها وبعثها هى أيضا ، المرأة المعذبة ، بنت المدينة التى جلست فى ماشيها الى موائد باهرة وتحت ثريات الكريستال وهى عارية الكتفين ! هى التى قرأت كتبا ودخلت امتحانات وتعلمت علوما ! كانت تبعث جسدا وروحا وينحسر عنها تصلبها العصبى ويسترخى وجودها كله ويتمطى ، على حين تذوب مرارتهـا وكبرياؤها الصلبة وتلين ...

لكن ساكن الحجرة الداخلية الذى نسيته

او كادت لن يلبث ان يبرز لهـا وهو يقرض بأسنانه عقد أصابعه أو يدفس قبضته فى فمه وهو يدنو منهـا على حذر يريد أن يلمس جسمها ، وها هى ، الآن ، والريح الجديدة تضرب فى شراعها الذى كان مطويا ، تنفر منه نفورا صريحا وهى تصيح من كل كيانهـا المبعوث للحياة :

ـ لا تلمسنى !

تركها خائفا من هـذه الصرخة الجـديدة الصارمة وارتد مرتعدا الى جحره ..

وسمعت بكاءه فى وحدته ، فى القفص المحكم الذى يحبسونه فيه من الليل الى الليل كما لو كان حيوانا ..

هناك ، فى خيـاله المحموم المضطرب كان يلعن هذه المرأة الصلبة الارادة ويزعم لنفسه أنها هى التى افسدت حياته وأضاعته لأنها لم تحبه ولم تعن به ولم تشجعه على النجاح ، ويتمثل فى مخيلته مشهدا لذيذ الوقع فى نفسه ، يربط هو فيه يدى زوجته وراء ظهرها ويؤدبها ... وكانت هذه التصورات المهتاجة تعوضه عن عجزه فى الحقيقـة ، وكأنها الشعرة الصغيرة التى لا تزال وحدها تربطه بعالم العقل .

وفى يوم من أيام الصيف دهش « ألتون » عندما رأى المرأة فى ثوب خفيف لطيف لم تلبس مثله منذ دخل بيتها ، بل كانت تبتسم ، لأول مرة منذ رآها !

وجلست الى جانبه على سلم المخزن تكلمه :

ـ لماذا هجرت بيتك وزوجتك ؟

كم عذبتها رغبتها فى معرفة الجواب عن هذا السؤال !

كانت تريد أن تجعل ماضى هذا الرجل أيضا ملكا لها ، حتى لا يعود يفصلها عنه شىء ينهض فجأة من الماضى ...

أرادت أن يتحرر أمامها من كل هذا الماضى ، فلما تكلم عرفت أن امرأته كانت فاجرة تشترى من أى رجل آخر ما لا يستطيع زوجها أن يقدمه لها ، وتشترى بسهولة ... وكل شىء كان له عندها ثمن .. وخانته حتى فى بيته وهو نائم .. وكرهها وكرهته ... ثم عاد يوما من المصنع فوجدها متلبسة على أرضية المطبخ ، وعندما أوشك أن يفتك بها لطمته بأن الطفل ليس ابنه بل ابن رئيس عمال فى المصنع منحها المبلغ اللازم لزواجها من « ألتون » التعس لتستتر به من كلام الناس ، وكان يجرى على الطفل نفقة شهرية طوال السنوات الثمانى التى عاشـــها هو فى غفلة ..

عندها لم يضرب ولم يقتل ولم يسأل شيئا ، بل نزع قبعتـــه من المسمار ورحل .. صار مجهولا يبحث عن المجهول !

عرفت قصته كاملة وملكت ماضيه كما ملكت حاضره ، وصار له عندها معنى كبير عندما أنقذها فى المساء من فتك زوجها الذى هاجمها بوحشية متلذذة عندما رأى الثوب الصيفى والذراعين العاريتين ، فتصدى له « ألتون » وقاده من عنقه الى محبسه فدفعه فيه وأغلق الباب عليه بالمفتاح ، وعاد الى المرأة الجاثية على الأرض وهى تدعك ذراعها التى لواها المخبول ، وكان ثوبها قد انشق صدره حتى الحزام ، فتركت أجيرها يسندها بذراعيه وينهضها رائيا لمحنتها ويقودها فى رفق الى نسمة هواء ..

وفى الليل صحا المخبول من نومه على ضحكة لم يسمع فى حيـــاته مثلها ، وأراد أن يخرج ليتبين سبب ضحكة المرأة ، لكنه وجد الباب مغلقا بالمفتاح كالعادة ، فركل الباب وهو يناديها فلم يسمع ردا ، فهى اذن ليست فى سريرها .. انها فى مكان آخر ، سعيدة تضحك !

وفى الصباح اختفى بعـــد أن سرق فى هذه المرة المبلغ البسيط الذى يملـــكه فلاح المزرعة العجوز الطيب ، وتصـــيدته على طريق القرية جماعة من الجنود معها زجاجة ، فسقوه جرعات أخذوا بها كل ما معه من نقود ، ثم اشترطوا عليه عندما توسل فى طلب المزيد من الخمر أن يأكل روث الخيل ، ففعـــل .. وعاد فى اليوم التالى دون أن يبحث عنه أحد ، وجسمه ملىء بالكدمات ..

لقد ضحكت امرأته فى الليل !

— ٤ —

بشـــرت الأرض بمحصـــول طيب وتحرك فى بطن المرأة جنين عمره شهران .

ولم يكن عسيرا على المخبول أن يفهم ، وبدأ يفكر فى الانتقام عندما عثر بالمصادفة على بندقية قديمة لم تستعمل منذ عهد بعيد ... أليس من حق الزوج اذا كان مريضـــا ، فحبسته زوجة لتستمتع خادمها ، أن يقتله وينال عطف الصحف والناس والقاضى ؟

لكنه أمام الاقـــدام على فعل الايجـــابى كان ينكص ويرتعد ويجبن .....

ان صوت الرصاصة مخيف ! ...

وقد يفشل فى التصويب فيخرج هذا الرجل القوى ولا يصيب منه مقتلا ! ...

وانتهز يوما خروج « ألتون » ببلطته للاحتطاب من الغابة وأقبل يتمحك بامرأته ، ولكنها فى هذه المرة لم تتردد فى ضربه على رأسه بكتلة من الخشب المعد للحرق فى المدفأة ، فسقط أمامها وظل ملقى على الأرض بلا حراك حتى صبت فوق رأســـه سطلا من الماء البارد ....

تنبه من غشيته ، ونظر اليها مليـــا ، ثم رحف ....

وأخيرا اعتدل واقفا وهو يقذفها بنظرة سيئة معتكرة ، وانطلق خارجا ووجهه مطبوع بفرحة مخبولة ....

انطلق نحو الغابة ووضع فى البندقية خمس رصاصات ، وهداه الى مكان عدوه من الغابة صوت البلطة .....

وتقدم حتى صار على مسافة قريبة وراء ظهره ، ومن مكمنه وراء شجرة اجتهد فى التصويب ماوسعه أن يجتهد ، ثم انطلقت الرصاصة ....

والتقت « الدون » فى دهشة وبلطته لا تزال فى يده ، وصوت الطلقة يتردد صداه من صخرة الى صخرة ، فلمح فوهة البندقية والوجه الشاحب المتقلص خلفها ، ولم يفكر فى الهروب أو الاحتماء ، بل تقدم على مهل ببطلته نحو عدوه ، وقميصه الابيض يلمع فى ضوء الخريف ...

ومرة أخرى ضغط حامل البندقية على الزناد ، فتفجرت على تميص حامل البلطة فى هذه المرة بقعة من الدم ، ثم تهاوى ، فاندفع الآخر نحوه وبندقيته فى يده ، وسد فمه الذى يئن بكعب حذائه ..

قاس الرأس فى الأرض الرخوة ، وانتفض الذراعان فى محاولة يائسة لانتزاع الحذاء من فمه ، ثم عمدت الجثة فترك القاتل بندقيته تسقط من يده وسحب قدمه واستولت عليه رعدة عنيفة ..

وكانت المرأة فى البيت قد تفززت لسماع صدى الطلقة الأولى الذى أقبل برنينه المتجاوب من فوق سطح المستنقع ، فلما سمعت الطلقة الثانية خرجت تعدو نحو الغابة وهى شاحبة شحوب الموت ، يتبعها عن بعد فلاحها العجوز الذى هد قواه الربو المزمن .. فالتقت المرأة بزوجها عائدا يثب على منحدر الصخور ، وتوقف لحظة كمن يفكر فى الفرار ، لكنها سألته :

ـ أين هو ؟

فأشار بيده الى ما وراءه ، وانطلقت المرأة دون أن تنظر اليه ، واذا به يتبعها كالمسحور دون أن يقوى على مقاومة اللذة التى أحدثتها فى نفسه مرارة اليأس الناطقة فى وجهها ، وما لبثت أن رأت وعرفت وانحنت وأخذت الرأس الميت بين ذراعيها واليد الهامدة فى يدها ..

ورأت البلطة والبندقية فوق الأرض ، وبصوت هادىء سألت زوجها الذى كان يقترب وهو يجفف فمه بظهر يده :

ـ أأنت من فعل هذا ؟

وادهشه هذا الهدوء لكنه زايله حذره ودنا منها ومد وجهه المرتعد كمن يمعن التشفى فى تعبير الالم الذى سكن وجهها ، وقال بصوت ينفضه فرح وحشى :

ـ هو ذا ، الآن ، عشيقك !

أراحت المرأة الرأس الميت على الأرض وتناولت البلطة فى يدها ووزنتها فى هدوء كما لو كانت تتعرف الى ثقلها ، ووقفت ..

وجيشت فجأة كل قواها ورفعت البلطة فى ثقة باردة وأهوت بها على ذلك الوجه الشامت فسمعت تحطم الجمجمة الفظيع تحت الضربة ، وعندما هوى وأنفه الى الأرض ضربته مرة أخرى فى صدغه حتى تستوثق من موته ، وعلمت أنها ستندم طوال حياتها على أنها عندما ضربته فى الصباح بالخشبة لم تصرعه ..

ودون أن تلقى عليه نظرة انحنت وأخذت رأس قتيله فى حضنها ، وضمت مياه المستنقع جثة زوجها قبل أن تبعث فلاحها الشيخ الى القرية ليعلن فرار المجنون الخطر بعد أن قتل خادم المزرعة ..

وأراحت الرأس الميت فوق ركبتيها وانتظرت ، هائمة النظرة فى الأرض التى رواها دم حبيبها وكساها بالربيع المفجع ، لكن النظرة كانت فى هذه المرة ميتة .